محاضرة موجهة لطلبة الماستر السنة الأولى: أدب حديث ومعاصر،

مقياس النثر العربي المعاصر

الروايات الرائدة بين التسجيلية والترجمة الذاتية

إعداد الدكتورة آمال منصور

مقدمة:

إن حدود الحياة الفردية حكاية مسار تسعى فيه الذات إلى التكيف مع واقعها المعيش، إذ هي جزء من منظومة مجتمعية تتقاطع فيها حيوات أخرى، و ما الإفصاح عن ذلك كتابة إلا محصلة لما طوته السنوات من تجارب متوزعة بين ماض طويت صفحاته وحاضر يعيش المرء لحظاته، ومستقبل يستشرف فيه آماله، هو امتداد زمني لا تخلو من استكناه النفس وتفكر في أحوالها وما آل إليه وجودها.

1- السيرة في الاصطلاح:

السيرة في الاصطلاح هي بحث يقدم فيها الكاتب حياته أو حياة احد الأعلام المشهورين، ويبرز فيها المنجزات التي تحققت في حياته أو حياة المتحدث عنه.

أما فن السيرة في التعريف الأدبي هو نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي، ويراد به مسيرة إنسان ورسم صورة دقيقة لشخصيته.

والسيرة قسمان:

القسم الأول: السيرة الغيرية:

يراد بها الجنس الأدبي الذي يكتبه بعض الأفراد عن غيرهم من الناس، سواء أكانوا من الأعلام الذين عاشوا في الزمن الماضي أو في الزمن الحاضر.

والسيرة الغيرية أقدم زمنا من السيرة الذاتية، لأنها برزت مع التاريخ والأدب، فمنذ القديم كان الرجال يؤلفون فيها حيث كانوا يتكسبون في بلاط الحكام والسلاطين، فكتبوا للملوك والسلاطين، وللحروب والمحاربين.

القسم الثاني: السيرة الذاتية:

تعني حرفيا ترجمة حياة إنسان كما يراها، والسيرة الذاتية تتعلق بالواقع، بأنه يذكر ويقص حياته وتقدم مسار أفكاره وأحاسيسه. وبذلك التصريح سماه " فيليب ليجون" بميثاق السيرة الذاتية وشرط وجود السيرة الذاتية هو الميثاق الاوتوبيوغرافي لتكون هناك سيرة ذاتية يكون هناك تطابق بين المؤلف والسارد والشخصية.

2- تطوّر السيرة الذاتية في الأدب الغربي*:

يذهب بعض النقاد إلى أن الترجمة الذاتية بالمفهوم الحديث لم يكن لها وجود في الأدب الغربي قبل عام 1600م، فالقدماء اليونان لم يكونوا مولعين بهذا اللون من الكتابة. وإنما عنوا بمرحلة النضج أو الذروة في حياة الفرد، واخذوا بنظرية " الفرد العظيم" أو "البطل" التي استقرت لديهم منذ أن كتب " بلوتراك" سير عظماء اليونان والرومان.

وفي كتابات ماقبل عهد النهضة، لا نكاد نعثر على ترجمات ذاتية إلا ما كان من الرسائل والوصايا والبيانات الرسمية التي يصدرها الأباطرة، والنبذ

---

* هذا تلخيص لكتابين مهمين :

- الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث للدكتور: يحي ابراهيم عبد الدايم، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 1975
- اتجاهات الرواية العربية المعاصرة للدكتور السعيد الورقي، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2014.

والفقرات التي تنشر إلى معلومات شخصية ، والوصايا الشهيرة، كوصايا القديسين.

ولكن أشهر التراجم الذاتية في العصور الوسطى "اعترفات القديس اوغوسطين" التي تعتبر قمة الاعترافات الدينية ، وقد حذا حذوها من كتب بعده ، وهي تذكر بما احتوته من صراحة وصدق، وقدرة على الاستبطان.

وقد كانت الاعترافات الدينية في العصور الوسطى، تعنى عناية شديدة بتصوير تجربة الكشف الصوفي، وهي تجربة تشبه تجربة الإلهام لدى الفنان، حافلة بالصدق، لان الصوفي ينقل لنا تجربة ذاتية تتصل بعالم غير مألوف لنا.

وتتابعت فيما بعد الترجمات الذاتية الانجليزية، خاصة مثل: "يوميات بلسترود" Bels rode (1605-1675م)، ومفكرة "جورج فوكس" Fox(1624-1991م)،التي نشرت بعد وفاته بثلاثة أعوام، ويوميات "جون ايفلين" (1620-1706م).

وتقف في صدارة الأدب الانجليزي الترجمات الذاتية لكل من "وليام بتلريتيس" Jeats " (1938م)، "جورج مور" الذي كتب ثلاث ترجمات ذاتية هي: "اعترافات شاب" ، "مذكرات عن حياتي المنسية" Memoires of my dead life.

أما في الأدب الفرنسي نجد من معالم الترجمة الذاتية "اعترافات روسو" وكتاب "صديقي" "لاناتول فرانس" و " يوميات إميل" (1882م)، "يوميات موريس دي جيوان"، "يوميات اندريه جيد".

أما في الأدب الألماني من معالمها "يوميات كيركجارد" و"رسائل هيجل"، و"رسائل جوته" ، "الشعر والحقيقة" لجوته، " وثلاث ترجمات ذاتية" لكارل ياسبرز هي: "حول فلسفتي" 1941، و " في طريق الفلسفة" 1951م، ثم " سيرة ذاتية فلسفية" 1953م، ولاينشتاين "سيرة ذاتية مجملة".

وفي الأدب الروسي من معالم ترجمته الذاتية "اعترافات تولستوي" و " يوميات ماري بشكير تسيف".

على أن التراجم الذاتية لم تقف عند حد اتخاذ كل ترجمة الاسم الذي يدل على محتوياها، وسرد حياة صاحبها وتاريخه العقلي والنفسي عن طريق السرد المباشر بأسلوب المقالة النثرية، بل تطورت لتنتهج سبيل التحليل والتفسير والتعليل عل نحو ما نجد في المقالة الأدبية أو الفلسفية أو الاجتماعية، وبين أسلوب الرواية المعتمد على السرد الأدبي الممتع م وعلى إعادة تمثل الحوار والأحداث والمواقف الشخصيات وإدخال عناصر طفيفة من الخيال لربط أطراف الحقيقة.

3- السيرة الذاتية في الأدب الغربي:

وإذا ما انتقلنا إلى الأدب العربي الحديث، لنقف من خلاله على تطور الترجمة الذاتية، لاحظنا أن العناية بها بدأت تتجدد، فبعثت من جديد في كتابات الأدباء منذ بداية النهضة في الأدب العربي، وهذه البداية تؤرخ بدخول مصر والدول العربية، في دورة حضارية جديدة ، إذ يبدأ اتصالها بالغرب، منذ أن أفاقت من سباتها حين احتكت بالفرنسيين وقت دخولهم مصر، وحين بدأ " محمد علي" يرسل بالبعثات العلمية إلى فرنسا.

يندُر في الحقيقة – أن نعثر على ترجمة ذاتية، يمكن أن تعتد بها في مجال الدراسات الأدبية، يعد كتاب "التعريف" لابن خلدون، الذي ذاعت شهرته منذ القرن التاسع الهجري (القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر ميلادي)ويعاصره كل من "السّخاوي" و"السيوطي"، وخلف كلاهما ترجمة ذاتية.

لكن أهم ترجمة ذاتية في القرن التاسع عشر تلك التي كتبها الإمام " محمد عبده" والتي تنقل جانبا من حركة الإصلاح الديني واللغوي التي دعا إليها، مثلما كتب "الشدياق" سيرة تعكس كثيرا من آرائه في الحياة الاجتماعية في مصر وفي العالم الغربي.

والترجمات الذاتية التي كتبت في تلك الفترة، هي المحاولات الأولى التي تعكس حقيقة الصدام بيننا وبين الغرب كما تصور مرحلة البحث عن الذات في سبيل العثور على مقومات شخصيتنا، وهي أيضا ترجمات ذاتية يمكن لان نعتبرها المحاولات الأولى لهذا الفن في الأدب العربي الحديث. ويجدر التنويه أن أصحابها لم يتأثروا في كتابتها بالأدب الغربي، رغم معرفة بعضهم لهذا الأدب، وربما يكون تأثيره ضئيلا لدى البعض الآخر.

3-1- نحو ترجمة ذاتية فنية:

إذا ما انتقلنا إلى القرن العشرين لنتبين تطور الترجمة الذاتية، فإننا سنطالع مجموعات ضخمة من الكتابة عن النفس في صور وأشكال مختلفة تتسم في مجموعها بأن ملامح الشخصية العربية بدأت تتبلور لتهتدي إلى ملامحها

ومقوماتها في نهاية الأمر، بعد مرحلة البحث عن الذات، أين استمرت طوال القرن 19م، حتى مطلع القرن 20، وقد ساعد على ظهور ملامح الشخصية القومية في الأدب العربي، في الأدب الحديث، ظهور الطبقة المتوسطة وظهور الشعور القومي عندما عالق هذه الطبقة التي تمثل روح الشعب تتطور وتنمو.

لقد نتج عن الشعور بالذات والإحساس بالفردية محاولات الكتاب تصوير أنفسهم في قالب الترجمة الذاتية، فكانت لنا بأنهم بأنهم في هذه المرحلة سجلا لحقائق الحياة الفكرية والروحية والأدبية والاجتماعية والسياسية لأصحابها.

وتتمثل الترجمة الذاتية الروائية في الأدب العربي الحديث، مع بعض التحرر، فيما كتبه كل من " المويلحي" في "حديث عيسى بن هشام" الذي أعار أفكاره وآراءه وخلاصة ملاحظاته حول إصلاح مجتمعه بشخصية "عيسى بن هشام" وبعض الشخصيات الثانوية الأخرى، ثم احتذاء" حافظ إبراهيم" في "ليالي سطح"

تلت محاولة " المويلحي" التي ظهرت في العقد الأول من القرن العشرين، محاولة أكثر اقترابا من الفن الروائي، ويعدها النقاد البداية الحقة لهذا الفن في الأدب العربي الحديث، وهي رواية "زينب" لـــ"هيكل" التي أصدرت سنة 1914م، تأثر فيها بحياته الخاصة حين صور شخصية "حامد" وحيرته بين الطبقات الاجتماعية، وثورته عليها.

تم تتابعت بعد ذلك التراجم الذاتية المصوغة في قالب روائي، واضطلع بهذا الفن الأدباء وأكثرهم ممن برعوا في الفن الروائي من أمثال:" ميخائيل نعيمة"، في عمله (لقاء) و (مذكرات الأرقش)، و"طه حسين" في (الأيام) و

"المازني" في ثنائية (إبراهيم الكاتب)، (إبراهيم الثاني)، و"العقاد" في (سارة) و (الحكيم) في (عودة الروح) و(عصفور من الشرق) و (يوميات نائب في الأرياف) ، و"سهيل" في (الحي اللاتيني)، و"لويس عوض" في (العنقاء)....

3-1-1- أحمد أمين وسيرته الذاتية:

كتب " احمد أمين" كتاب (حياتي) سرد فيه حياته منذ أيام طفولته، حتى قبيل وفاته بقليل، وقد كتبها نحو الرابعة والستين من عمره معتمدا في رواية أحداثها على الذاكرة التي فرضت عليه في كثير من أجزائها الاستسلام إلى تداعي المعاني كما اعتمد في أجزاء أخرى منها على مذكرات كان قد سجلها منذ أول عهد شبابه، عن رحلاته داخل مصر وخارجها، وعلى مفكرات سنوته*** كان يثبت فيها أهم أحداث حياته.

وقد تتبع فيها المؤثرات الهامة التي أسهمت في تكوينه الخلقي والروحي والفكري، وأسهمت في الكلام عن الشخصيات التي تركت طابعها على شخصيته الفكرية بنوع خاص، ومنها شخصية أبيه وشخصيات أساتذته وخاصة أستاذه " عاطف بركات" ومنها سيدتان انجليزيتان كانتا تعلمانه الانجليزية. وقد أسهب أيضا في وصف الدور الذي اضطلع به في الحياة الثقافية بعد أن اكتمل تكوينه الثقافي، فعدد الجوانب التي ترسم لنا في النهاية صورة واضحة القسمات بهذا الدور الذي شارك فيه في الحياة العلمية باشتغاله مدرسا بالمدارس الابتدائية، ثم معيدا بمدرسة القضاء الشرعي، فقاضيا في الواحات، فمدرسا في مدرسة القضاء ثم رئيسا للجنة التأليف والترجمة والنشر، فأستاذا بكلية الآداب

فعميدا لها، فمديرا للإدارة الثقافية في الجامعة العربية، وينشئ خلال فترة عمله بها معهد المخططات العربية.

يختار" احمد أمين" لصياغة مسيرته الذاتية أسلوب المقابلة فهو لم يقسم ترجمته إلى فصول، بل هي في الحقيقة مقالات مختلفة تناول في كل منها جانبا من حياته.

كما يحكي في كتابه عن رحلاته وعن أهم الحوادث التي تعرض لها،فهو حكى عن رحلاته وهو أستاذ في الجامعة إلى البلاد الشرقية كالأستانة والشام وبيت المقدس، والعراق، فيتعرض وهو في العراق لحادث خطير كل دان يودي بحياته، إذ حضر مجالس العزاء كان يقيمها الشيعة في ليالي مقتل " الإمام علي" وقد هيج خطيب الحفل الحاضرين حين أشار إلى ما جاء في كتابه " فجر الإسلام" عن الشيعة، وكادوا أن يعتلوا عليه، فانسل من باب خلفي هو ومن معه، وهو يعلق على تلك الواقعة مشيرا إلى أنها تركت أثرا في نفسه وتفكيره.

كما رحل إلى "أوروبا" وشاهد عن كثب ألوانا من حضارتها وأثارها، وثقافتها، وبيئتها المتقدمة. في عواصم كثيرة منها: كباريس، ولندن، وبروكسل، وتحدث هذه الرحلات العديدة في نفسه ابلغ الأثر وأعمقه، فتغير نظرته إلى الحياة لأنه ألمّ بأنماط جديدة من البشر والعادات والخبرات ومظاهر السلوك.

وهكذا حلول "احمد أمين" أن يصور علاقاته الخارجية بالناس وبالأماكن، دون أن يصور نموه النفسي الداخلي، لـــ "طه حسين" في "الأيام"، لكنه تمكن- في الحقيقة- من كتابة ترجمة ذاتية لها لون من الألوان البناء الفني يجبل إلى النفس قدرا من المتعة والتأثر.

3-1-2- توفيق الحكيم وسيرته الذاتية:

تعد الأعمال الثلاثة لتوفيق الحكيم (عودة الروح 1933- يوميات نائب في الأرياف 1937م- عصفور من الشرق 1938م) انجح المحاولات الرائدة التي ترددت بين التسجيل والترجمة الذاتية.

فبالرغم من غلبة طابع التأملات الفكرية الذهنية على إنتاج "توفيق الحكيم" إلا أن هذه الأعمال لم تكن منبتة الصلة بالواقع ، سواء باعتباره واقعا تسجيليا، أو باعتباره وسيطا تتحرك فيه، ومن خلاله الشخصيات.

حيث بدأت رواية " عودة الروح" قبيل ثورة 1919م، حاول من خلالها "توفيق الحكيم" يربط حياة أسرة صغيرة قليلة الحركة، تسكن بيتا من بيوت القاهرة بمصر قبل الثورة، وذلك من خلال رؤية يمتزج فيها الواقع بالحلم في تصميم ذهني، حيث اهتم بتقديم واقع حياة الفلاح المصري والقرية المصرية.

وفي " يوميات نائب في الأرياف" لا يختلف الأمر من هذا كثيرا، فهو يقف في هذا العمل موقف المعلم والواعظ؛ أي « موقف المتعالي لا موقف المنتمي »، وإذا كانت "اليوميات" قد حاولت تقديم واقع القرية المصرية وسيطا لفكر الكاتب، فإن " عصفور من الشرق" قد خلت تماما من هذا الوسيط، وأصبحت أميل إلى التجريد الذي يهتم أساسا بعدد من القضايا التي شغلت الكاتب وتدور كلها حول العلاقة بين الشرق والغرب.

وهكذا شهدت فترة الريادة هذه على نحو ما رأينا خصوبة وتنوعا في الإنتاج الروائي، استطاعت الرواية بعده أن تثبت مكانها في مجال الكتابة الأدبية.